هيسبريس تمودا، العدد XLIX ، (2014) ص. 13-32

الخطاب السياسي لدى "العامة" في مغرب العصر المريني ملعبة الكفيف الزرهوني نموذجا

حميد تيتاو

الكلية متعددة التخصصات – تازة–

عادة ما يحيل كل استعمال للكلمة من أجل التخاطب بأنه أداء كلامي، وبأنه خطاب هدفه تحقيق التواصل بين مُنتج الكلام ومستقبله سواء عبر الكلام أو النص. أما الخطاب السياسي، فكثيرا ما يحيل إلى حمولة فكرية ومضمون "إيديولوجي" يعبر عن عقيدة سياسية واختيارات مذهبية معينة تستبطن من جهة مواقف السلطة السياسية وأسلوبها لإثبات مشروعيتها، ومن جهة أخرى مواقف الآخرين من هذه السلطة وتصوراتهم السياسية اتجاهها.

ولعل المطلع على أجناس الكتابة في تاريخ المغرب خلال العصر الوسيط يستطيع أن يستجلي بعض مضامين هذا التعريف الأولي للخطاب السياسي، بدءا بنصوص الآداب السياسية والسلطانية[1] التي جعلت من السلطة موضوعا لها، مرورا بكتب الحوليات التاريخية[2] التي عبر أصحابها عن مواقفهم المساندة أو

(1) ابن رضوان، **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1984. ابـن الأزرق، **بدائع السلك فـي طبـائع الملك**، تحقـيـق وتعليق، علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام، الجمهوريـة العراقيـة، دار الحريـة للطبـاعـة، بغداد، 1977–1978 م. ابـن الخطيب، **الإشارة إلى أدب الوزارة – مقامة السياسـة**، تحقـيـق ودراسـة، محمـد كمـال شبـانة، مطبعـة الساحل، الربـاط. دون تـاريخ. ابـن خلـدون، **مقدمة ابـن خلدون**، دار الكتب العلميـة، بيروت، ط1 ، 1993م. ابـن هذيل، **عين الأدب والسياسـة وزين الحسب والرياسـة**، مـخ، خ.ع، الربـاط، رقـم 581 د. **مـؤلف مجهول، الرسالة الوجيزة إلى الحضرة العزيزيـة فـي علوم الخلافة**، [وجهها صاحبها إلى السلطان أبي فارس عبـد العزيز بـن أبي الحسن المريني 767–774هـ. والتخريج هنـا لمحقق هذه الرسالة]، إعداد وتقديم أحمد الدغيرني، مطبعـة المعارف الجديدة، الربـاط، الطبعـة الأولى، 1987م... انظر، عز الدين العلام، **الآداب السلطانية، دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي**، عالم المعرفة، عدد 324، فبراير 2006، ص: 8–9.

(2) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م. **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب**، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1990. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م. ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988م، ج7. ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار**

الرافضة لهذه السلطة أو تلك، وصولا إلى كتب النوازل[3] وكتب البدع[4] وغيرها التي تضمنت مواقف أصحابها من السلطة وأسلوب اشتغالها. ولا شك أن ما يجمع شمل هذه المتون كونها تعبر عن "خطاب سياسي" لا يتقنه إلا الممتلكون لفعل الكتابة[5] أو من تسميهم تلك الأدبيات نفسها بأهل القلم[6]، مما يجعل من خطابهم ذا بنية نظرية على درجة من التماسك، مستمدة من إيديولوجيا معينة تسوغ الأخطاء والإخفاقات إن وجدت أو تنتقدها، وتشرعن ما هو كائن أو تبحث في ما ينبغي أن يكون[7]. وهو بذلك خطاب يختلف عن "الخطاب السياسي" الذي مارسته العامة والجمهور خلال العصر الوسيط، كون هذا الأخير يعبر عن مظالم ويكشف عن موقف هؤلاء مما يجري حولهم اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا أو دينيا، وذلك في إطار لغة واصفة تتوسل أساليب للتعبير عنها مثل الحكاية أو المثل أو الشعر أو الزجل[8].

الأندلس والمغرب– قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1985م. ابن خلدون، **كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، الجزء الأول، نشره ألفرد بيل Alfred BEL، مطبعة بييير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1322 هـ/ 1904 م. التنسي، محمد بن عبد الله : تاريخ **بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، حققه وعلق عليه، محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية، 1405 هـ/ 1985 م...

(3) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمملكة المغربية، الرباط، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401 هـ/ 1981 م. ابن هلال، إبراهيم السجلماسي، **الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير**، مخ، خ.ع، الرباط، رقم د68، ميكروفيلم 016. **ابن هلال، أجوبة ابن هلال**، رتبها علي بن أحمد الجزولي الجياني، طبعة حجرية، دون مكان الطبع، دون تاريخ. ابن مرزوق الحفيد، **أجوبة وفتاوى**، مخ، خ.ع، الرباط، رقم د134، ميكروفيلم 036.

(4) ابن الحاج، **المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انحلت وبيان شناعتها وقبحها**، طبع على نفقة مصطفى أفندي فهمي الكتبي، وشريكه، المطبعة العامرة الشريفة، 1320 هـ. الهبطي، عبد الله بن محمد: **كتاب الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية**، مخ،خ.ح، الرباط، رقم 2808. العقباني، محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد، **تحفة الناظر وغنية الذاكر في تغيير المناكر**، مخ، خ.ع، الرباط، رقم، 691ك. أنظر للتفصيل عن خطاب هذا النوع من المتون، الهلالي محمد ياسر، **قراءة في بعض "كتب البدع" بالمغرب الأقصى أواخر العصر الوسيط**، ضمن: البدع في تاريخ المغرب، قضايا ونصوص، مجلة دفاتر البحث، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، المجلد الأول، العدد الأول، شوال 1422هـ، دجنبر،2001 م. ص ص:11–42.

(5) عبد السلام حيمر: **"المغرب: الإسلام والحداثة"**، مطبعة سندي، مكناس، ط 1، 1997، ص: 9–10.

(6) ابن خلدون، **مقدمة**، ص: 200–201. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ص، 256.

(7) عبد السلام حيمر: **"المغرب: الإسلام والحداثة"**، ص: 9.

(8) شقور عبد السلام، **الشعر المغربي في العصر المريني، قضاياه وظواهره**، بحث لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 89–1990. محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996م، ص، 324. الجراري عباس عبد الله، **الزجل في المغرب: القصيدة**، الناشر مكتبة الطالب، مطبعة الأمنية، الرباط، د.ت، ص، 452.

ويعتبر فن الزجل من أبرز أشكال التعبير الفني الذي لطالما عبرت من خلاله العامة عن مواقفها اتجاه ما يجري حولها، وما يمس همومها اليومية[9]. وقد ساد هذا الفن في مغرب العصر المريني بشكل كبير[10]، حيث لمعت فحوله في مجتمع هذه المرحلة، وبرعوا في هذا الفن وأصنافه، وجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال[11]. وعبر ابن خلدون[12] عن انتشار هذا الصنف من فنون التعبير بقوله، إن أهل فاس وغيرهم استحسنوا هذا الفن "وولعوا به ونظموا على طريقته، وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم، وكثر سماعه بينهم، واستفحل فيه كثير منهم".

ويمثل الكفيف الزرهوني[13] أبرز من أبدع في مذاهب هذا الفن[14]، من خلال ملعبته التي نظمها عن "رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى إفريقية يصف هزيمتهم بالقيروان، ويعزيهم عنها، ويؤسيهم بما وقع لغيرهم، بعد أن عيبهم على غزوتهم إلى إفريقية"[15]. وتتجلى أهمية هذه الملعبة في كونها أقرب وثيقة تاريخية حول ظروف هذه النكبة التي هزت كيان المغرب الكبير في هذه المرحلة، فضلا عن أنها نابعة من عمق شعبي يعبر عن موقف العامة والبسطاء من بعض الأحداث السياسية التي تجري حولهم[16]. وقد خصصها الكفيف للتعبير عن موقفه من الحملة العسكرية المرينية إلى إفريقية وسرد تفاصيل هذه الحركة وملابساتها[17]، وعدد من حمل بهم السلطان في جيشه[18]، كما وصف بدقة لا متناهية هزيمة السلطان ونكبته[19]، وكانت آخر حادثة وثقها الكفيف هي غرق أسطول أبي الحسن في سواحل الجزائر،

(9) انظر للتفصيل، الجراري عباس عبد الله، **الزجل في المغرب**، ص، 452.

(10) محمد المنوني، **ورقات**، ص، 324.

(11) ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 518 –523–525.

(12) **المصدر نفسه**، ص، 524.

(13) لم نعثر على ترجمة خاصة بهذا الزجال، وجل ما لدينا يقتصر على ما أورده ابن خلدون الذي اكتفى، في ذكر اسم الشاعر، على لقبه ونسبه، دون أي معلومات أخرى. [**المقدمة**، ص: 525.] ويؤكد محقق "الملعبة" الأستاذ محمد بن شريفة، هذا الاستنتاج، مضيفا بعض المعلومات الدقيقة، ودائما من خلال كلام ابن خلدون، منها أن الكفيف الزرهوني كان شيخا ضريرا يرجع نسبه إلى قبيلة صاريوة بالقرب من مدينة زرهون، عاصر عهد السلطان أبي الحسن المريني. وربما يكون قد توفي خلال الطاعون الجارف الذي ضرب المغرب سنة 749هـ. الزرهوني، الكفيف [ق 8هـ]، **ملعبة**، تقديم وتحقيق، محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1407 هـ/ 1987 م، مقدمة المحقق، ص ص: 6–8.

(14) ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 525.

(15) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(16) **ملعبة**، مقدمة المحقق، ص ص:5.

(17) الكفيف، **ملعبة**، الأبيات: من 68 إلى 96. ص: 65 – 70.

(18) **المصدر نفسه**، الأبيات: من 99 إلى 108. ص: 70 – 72.

(19) **المصدر نفسه**، الأبيات: من 158 إلى 265. ص: 81 – 99.

مشيرا، بكثير من التلميح دون الإفصاح، إلى انقلاب أبي عنان على أبيه وانتزاعه الحكم منه انتزاعا[20].

تبرز أهمية ملعبة الكفيف الزرهوني، كما يؤكد ذلك محققها[21]، في كونها تضم محتوى تاريخي واقعي، عن هذه الحملة العسكرية، يتفق مع أهم ما جاءت به المصادر المعاصرة لهذا الحدث البارز، مثل العبر لابن خلدون والمسند لابن مرزوق وغيرها، لكن الملعبة تنفرد عن تلك المصادر، ليس فقط بروايات تاريخية لا توجد في غيرها، بل أيضا في كونها تكشف عن بعض الأصداء والمواقف الشعبية التي أغفلها المؤرخون، وتعكس وعيا شعبيا عميقا، ونضجا سياسيا عاليا حول دواعي رفض التوسع المريني في اتجاه الشرق عامة، وحركة السلطان أبي الحسن إلى إفريقية خاصة[22].

أولا- ملعبة الكفيف الزرهوني، اتجاه رافض للسياسة التوسعية المرينية نحو الشرق

من الواضح أننا لا نبحث في خطاب الكفيف عن الأخبار التاريخية التي يحملها عن حركة أبي الحسن المريني إلى إفريقية، فالمصادر التاريخية الأخرى كفتنا مهمة استقصاء هذه الأخبار، أما ما نبحث عنه، فخطاب سياسي متميز ضمنه الكفيف ملعبته، يتعلق بموقفه، من توسع المرينيين نحو الشرق على حساب بني عبد الواد بالمغرب الأوسط وبني حفص بإفريقية، وهو موقف يستحق التوثيق والمراجعة باعتباره مؤشر على حالة ذهنية لمختلف فئات مجتمع هذا العصر في تعاملها مع واقعها ومستجداته.

يذكرنا الكفيف الزرهوني في مستهل ملعبته، وقبل أن يعلن عن موقفه صراحة، بأهمية العدل والحكم الرشيد في السياسة السلطانية، فأحوال الرعية طاعة أو عصيانا مرتبطة أشد الارتباط بعدل السلطان أو جوره[23]، ويورد في هذا الصدد على غرار كتب الأحكام السلطانية الحكاية الفارسية المنسوبة إلى كسرى أنو شروان والعدل الذي ميز عهده[24]. وفي هذا الاستهلال ما يكشف عن هوية "المُخَاطَب" وكذا عن موضوع "الرسالة" التي يسعى إلى تمريرها. فالمُخاطَب هنا هو السلطة

(20) **المصدر نفسه**، الأبيات: من 473 إلى 475. ص: 137.
(21) الكفيف الزرهوني، **ملعبة**، مقدمة المحقق، ص: 12.
(22) **المصدر نفسه**، مقدمة المحقق، ص: 23.
(23) **المصدر نفسه**، ص: 53.
(24) **المصدر نفسه**، ص ص: 54-58.

المرينية في شخص السلطان، وأما الرسالة فتخص بعض الاختيارات السياسية لهذه السلطة، وإبداء الرأي فيها دعما وتأكيدا أو نقدا وتصحيحا. لذلك يحدد موضوع الرسالة بدقة، ويسأل مباشرة عن مصير الجيش المغربي الذي شردته اختيارات السلطان أبي الحسن وطموحاته في براري إفريقية والمغرب الأوسط:

36- أَحْجَّاجَـا تْخَلّلُـوا السَّحـْـرَا ودْرُوا شْرَح البْلَادْ مْعَ السْكَّان
37- عسكر فاس المدينـة الغْـرَّا إِينْ صَارَتْ بِهْ عْزَايَمْ السلطان
38- أَحْجَّاجْ بَالنُّبِي اللِّـي زَرْتُـمْ وَقْطَعْتُمْ لِيهْ كْلَاكَـلْ البِيـدَا
39- عَنْ جِيشْ الغَرْب جِيتْ نْسَالْكُم المَتْلُوفْ فِي افريقيـا السُّودَا[25]

ومنذ البداية يصر الكفيف أن يكشف الحالة النفسية المتأزمة التي سادت مجتمع هذه المرحلة لحظة وصول الأنباء عن هزيمة الجيش المريني بالقرب من القيروان، محددا بذلك نفسية المُخاطِب واللغة التي تسكن الرسالة:

51- مَا أَصْعَبْهَا مَنْ أُمُورْ وُمَا شَرَّ[هـ]ا لَـوْ تَّقـْرَا كُلْ يُومْ عْلَى الوِيدَان
52- لَجْـرَتْ بْالـدَّمَ وَانّصْبَغ حَجْـرَ[هـ]ا وُهْوَت لْجَرَافْ وُجَفَّتْ الغَدْرَاتْ[26]

والحقيقة أن الكفيف الزرهوني لم يتردد بعد هذه المقدمات الضرورية في التعبير بضجر متعال، والإفصاح بشكل مباشر عن رفضه الواضح لهذه الحملة العسكرية، معتبرا أن الأمر يتعلق بخطأ استراتيجي في السياسة المرينية "الخارجية":

53- أَمُـولاَي بُولَحَسَن خْطِينَـا البَاب فـي قْضِيَّـة سَـرْنَا لْتُونـس
54- فِي غْنَى كُنَّا عَنْ الجَرِيدْ وُالزَّابْ وَاشْلَكْ بْعَرب اِفريقية الغُوبَس
55- أَمَا بَلْغَكْ عَنْ عُمر فتى الخطاب الفاروق فاتح القرى المؤسس
56 فتح الشام والعراق وتاج كسرى ولـمْ يَفْتَحْ مَنْ فْرِيقية ذُكَّـان
57- كـانَتْ إِذَا ذُكِـرَتْ لـهُ كْـرَهْ خَبْرَ[هـ]ا وُقـال اِسَمْها يِفَـرَّقْ الإِخـوان
58- هـذا الفـاروق زُمُرد الإِيمـان يِصَرَّح فْإِفريقية بْذَا التصريح
62- إِذَا كَـانْ ذَا فِـي مُـدَّةْ البَرَرَا أَشْ يَفْعَـلْ فِي أَوَاخْـر الأزمان[27]

(25) المصدر نفسه، ص ص:58-59.
(26) المصدر نفسه، ص ص: 61-63.
(27) المصدر نفسه، ص ص: 62-63.

وعلى امتداد صفحات الملعبة نصادف في كل مرة تنديدا للكفيف بهذه الحملة التي وسمها بـ"الطامة الكبرى"[28]، كما وصف الحاجب الحفصي أبو عبد الله محمد بن تافرجين الذي دفعت أقواله المزخرفة وإغراءاته بالسلطان المريني إلى اتخاذ قرار الحملة بـ"الغرار" أو "الغدار"[29]، وبكثير من الإبداع شبه وضع المغرب الأقصى والدولة المرينية قبل بدء الحملة العسكرية المعنية بأيام العيد، ووضعهما بعد الحملة والهزيمة بأيام الشيب والهرم والشيخوخة[30].

248- وُكـانَتْ ذَا الواقعــة فِي ذِي الحِجَّا فَثْمَنْـــيَ وَارَبْعيـــن وُسْبَـعْ مَيَّا

249- عَيَّـدْنَـا يُـومْ الأربعـــاء البَهْجَـا وُفِي يُومْ الاثنين شَابَـتْ اللَّحْيَـا

إن الأمر إذن يتعلق بموقف واضح رافض لسياسة التوسع اتجاه الشرق، ولحملة السلطان المريني لاسترجاع الإرث الموحدي السابق. وقبل الحديث عن دواعي هذا الموقف، يجدر بنا التأكيد أن رأي الكفيف هذا لم يكن نشازا في عصره، بل تناغم مع مواقف كثير من الفعاليات المجتمعية في مغرب هذا المرحلة، وخاصة المتصوفة والصلحاء الذين عارضوا بشدة السياسة التوسعية المرينية سواء نحو تلمسان أو إفريقية، وتدخلوا في أكثر من مرة لوقفها. فقد عبر الولي أبو زيد عبد الرحمن الهزميري عن استنكاره ورفضه الشديد لهذه السياسة في زمن أبي يعقوب يوسف أثناء حصاره لتلمسان[31]، وعارض الولي أبو هادي حركة أبي الحسن نحو إفريقية[32]. ومثل هذا الموقف أبداه الشيخ أبو عبد الله الصفار أثناء حملة أبي عنـــان نحـــو تلمسان وإفريقية[33]. وقس على ذلك مواقف الرفض والشجب الصريح التي أعلن عنها صلحاء وصوفية تلمسان والمغرب الأوسط، كموقف سيدي الحسن بن مخلوف أبو علي الشهير بأبركان[34](ت 857 هـ/ 1453م)، وموقف سيدي عبد الله

(28) **المصدر نفسه**، ص: 81.

(29) **المصدر نفسه**، ص: 68.

(30) **المصدر نفسه**، ص: 96.

(31) ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقير**، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط، 1965، ص، 70. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1، 1398 من وفاة الرسول/ 1989م، ص، 242.

(32) ابن قنفذ، **أنس الفقير**، ص، 70.

(33) النميري، **فيض العباب**، ص ص، 219– 220.

(34) انظر ترجمته عند ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص ص، 79–80.

بن منصور المغراوي[35] (874 هـ/ 1469م)، والتي تتفق كلها مع الآراء السابقة في رفضها الصريح والمباشر للحرب ضد الكيانات السياسية المجاورة، والعمل بشتى الوسائل الممكنة على منعها.

وإذا كانت أسباب رفض هذه السياسة التوسعية لدى المتصوفة تتمثل أساسا في إحساسهم بكونهم ناطقين باسم العامة والمغبونين المستضعفين[36]، الذين هدتهم الحروب بين الكيانات السياسية المغاربية، وخلقت لكثير منهم متاعب اقتصادية واجتماعية ونفسية[37]. وكان حضورهم هاماً لمحاولة وقف الحرب ومنع اندلاعها[38]. فما هي دواعي الكفيف الزرهوني في تبني موقف الرفض والشجب اتجاه هذه السياسة بشكل عام، و"حركة" السلطان أبي الحسن بشكل خاص؟

---

(35) انظر ترجمته في **المصدر نفسه**، ص ص، 136 – 137. محمد ياسر الهلالي، **اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني (قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة)**، ضمن "التاريخ والفقه"، أعمال مهداة إلى المرحوم محمد زنيبر، إنجاز الجمعية المغربية للتاليف والترجمة والنشر، تنسيق محمد حجي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2003، ص ص، 242 – 243.

(36) محمد مفتاح، **التيار الصوفي والمجتمع المغربي أثناء القرن 8 هـ/ 14 م**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، 1980 – 1981، ج1، ص، 195.

(37) وهو ما عبر عنه بعض الصلحاء، في مراحل مختلفة من العصر الوسيط أثناء تدخلهم لمنع بعض الحملات العسكرية؛ فقد ورد في بعض تراجم "التشوف"، أن أحد المتصوفة اعترض طريق تاشفين بن علي المرابطي لمنع حركته إلى وهران وقال له، "أين تذهب بهذا الخلق تهلك عباد الله"، ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، نشر وتصحيح أودلف فور، مطبوعات إفريقيا الشمالية، الرباط، 1958م، ص، 116. كما ورد في ترجمة لأحد أولياء المغرب الأوسط أنه اعترض سبيل أمير حفصي حرك إلى تلمسان وقال له، "آش تسال لهذا الناس، تخرب بلاد الإسلام"، ابن مريم، **البستان**، ص، 137.

(38) يمكن الاستشهاد هنا بموقف الشيخ عبد الرحمن أبي زيد الهزميري الذي شق عليه ما تكبده أهل تلمسان من معاناة جراء الحصار الطويل الذي ضربه أبو يعقوب يوسف عليهم؛ فـ "رحل من بلده أغمات لقضاء الحاجة من أمير المؤمنين... ونيته باطنا صرفه عن ذلك الحصار، ويكف عن حصره عليهم لشدته حتى بلغ ثمن الدجاجة عشرة دنانير ذهبا للقوت لا للدواء وللفأر ثمن معتبر فلم يقبل منه. فرجع إلى فاس ونزل بجامع الصفارين (...) فبعد أيام قتل السلطان أبو يعقوب ورجع جيشه" وهي كرامة تحيل إلى دعوة مستجابة للولي في السلطان بعد أن رفض وساطته في فك الحصار، ويحيل أيضا إلى عقاب أنزله الولي لصالح المتضرر منه. احمد بابا التنبتكي، **نيل الابتهاج**، ص، 242. التنسي، **تاريخ بني زيان**، ص، 133. ابن قنفذ، **أنس الفقير**، ص، 70. وتنبغي الإشارة هنا إلى كرامة أخرى مرتبطة بفك هذا الحصار، وتتعلق بما أورده ابن مريم في ترجمته لسيدي محمد بن أحمد التلمساني الشهير بالمقري أن "من عجائب أبي عبد الله القرموني في تفسير الرؤيا أنه كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق مع غيره من أهل تلمسان أيام حصره لها، فرأى في منامه أبا جمعة علي الجرائحي منهم كأنه قائم على سانية دائرة وجميع أقداحها وأقواسها تصب في نقير في وسطها، فجاء يشرب فاغترف الماء فإذا فيه فرت ودم، فأرسله واغترف فإذا هو كذلك ثلاثا أو أكثر، ثم عدل إلى خصة ماء فجاء وشرب منها ثم استيقظ وهو في النهار فأخبره، فقال، إن صدقت الرؤيا فنحن خارجون عن قريب من هذا السجن، قال كيف ؟ قال، السانية الزمان، والنقير السلطان، وأنت الجرائحي تدخل يدك في جوفه فينالها الفرث والدم، وهذا لا نحتاج معه إلى دليل. فلم يكن إلا ضحوة الغد فإذا النداء عليه فخرج فوجد السلطان مطعونا بخنجر، فأدخل يده في جوفه فناله الفرث والدم فخاط جراحته، وخرج فرآى خصة ماء فغسل يده وشرب، فلم يلبث السلطان أن توفي وسرح المسجونون". ابن مريم، **البستان**، ص، 160. احمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 424.

يبدو أن موقف الكفيف الزرهوني لم يختلف كثيرا عن مواقف الناطقين بأحوال العامة وهمومها، وكل الذين شغلتهم نتائج هذه الحركات العسكرية واعتقدوا بعدم جدواها، غير أننا نعتقد أن موقف الكفيف الزرهوني، وإن توافق مع رأي المتصوفة، فقد تميز عنهم من خلال اهتمامه بمن حمل بهم السلاطين في هذه الحملات من جنود وغيرهم ممن خلفوهم في بلاد المغرب من نساء وأطفال، في الوقت الذي اهتم فيه المتصوفة بحماية من تقصدهم حملات السلاطين المرينيين بالحرب أو الحصار. وفي هذا ما يعطي بعدا خاصا لما يحمله خطاب الملعبة.

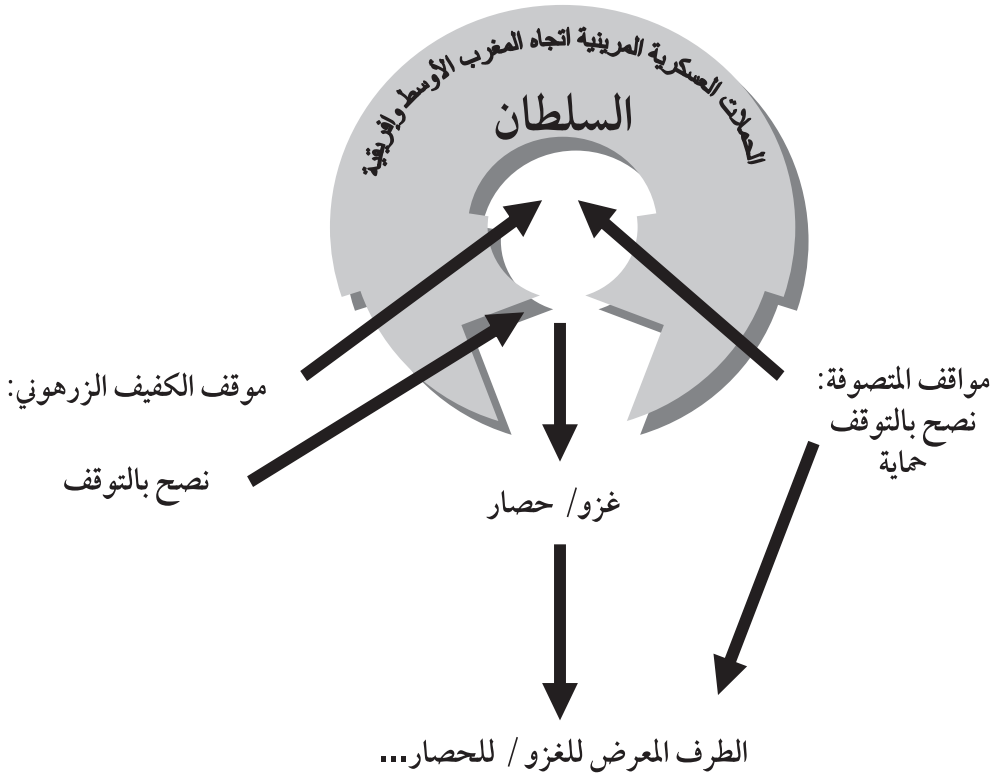

الظاهر أن الكفيف الزرهوني لم يكن يرفض توسع السلطة المرينية اتجاه الشرق من باب الإشفاق على من أهلكتهم تلك الحملات من ساكنة المغرب الأوسط أو إفريقية، على غرار المتصوفة، بل من باب الإشفاق على هؤلاء الجنود الذين غربتهم آفاق السلطان المريني، وميله لبسط سلطته على إفريقية، وأفضت إلى طول حملاته، ومدّدت من مدة غيابهم عن أهليهم ومواطنهم. يقول الكفيف:

176- لَـوْ قَـامْ فِي وَادْ بِجايـة الغَـرَّا مَـنْ ثَمَّـة كَانْ يِزِيـدْ فَمْلَـكْ شَـانْ
177- إِلاَّ طْـوَى البِيـدْ وُطَـوَّلْ السَّـفْرا وُرْمَـى النـاس فِي حْلاقـم الثعبان[39]

ويضيف على لسان هؤلاء متهما إياهم بإفشال الحملة، ومبررا لهم في الوقت نفسه تخاذلهم عن نصرة السلطان أثناء نكبته بالقرب من القيروان بقوله:

164- وَالعَلَّـة الثانيـة دْشَـمْ وُمْرِيـن وُعْظَـم الـدُّولَا القْدِيمَـة البَانيـا
165- قَالُـو مَـا خَصْنَا سِـوَى أَرْض الصِّين لَـوْ قَـالْ قُومُـوا لْهَـا لَقُلْنَـا أَيَّـا[40]
168- هْتَكْنَـا قَالُـوا بَكْثَـرْة الرَّحْـلَات لَبْـلَادْ الحَـرْ وُالغْـلَا وُالجُّـوع[41]

تكشف أبيات الكفيف الزرهوني هذه عن موقف شعبي عميق من السياسة العسكرية للدولة المرينية وانعكاساتها الاجتماعية. فالحملات التي كانت تستغرق الشهور والسنوات، مع تتابعها وتواليها، أفرزت ردوداً متنوعة وترسبات أبرزها هذا التذمر الذي أصاب الجند، وعبر عنه الكفيف في ملعبته بكثير من الإبداع. ولا غرو، ففي عهد أبي الحسن المريني، وقبله أيضا، أفضت ردود الفعل هذه إلى توقف الكثير من الحملات، وأدت في بعض الأحيان، لحدتها، إلى حبك المؤامرات والانقلابات واغتيال الحاكم في أقصى الحالات[42].

(39) الكفيف الزرهوني، **ملعبة**، ص: 84.
(40) **المصدر نفسه**، ص، 82.
(41) **المصدر نفسه**، ص: 83.
(42) تجدر الإشارة إلى أن تذمر الجند من الغيابات الطويلة عن عيالهم ومواطنهم ليست وليدة المرحلة المرينية فقط، بل تعود جذورها إلى العصر المرابطي، وفي هذا السياق أورد ابن الآبار رواية عن تاشفين بن علي الذي "مكث في الحرب خمسة أعوام إلا أشهراً ثلاثة، ما آوى إلى بلد ولا عرج على أهل ولا ولد" (**الحلة السيراء**، ج 2، ص، 196). وبالمثل أدى طول الإقامة بالجيوش الموحدية في إفريقية والتغرب عن أولادهم وأوطانهم إلى محاولة اغتيال عبد المومن بن علي والفتك به في خبائه حسب رواية ابن أبي زرع. (**الأنيس المطرب**، ص، 199). وهو ما تجنبه المنصور عندما استجاب لرغبة مشايخ الموحدين بالتمهل في التوجه نحو إفريقية سنة 595 هـ/ 1198م، بعدما غابوا بالأندلس مدة خمس سنوات، (الناصري، **الاستقصا**، ج2، ص، 203). وانظر عن حالات أخرى في هذا الصدد، ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987م، ص، 424. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الفكر، بيروت 1978، ج6، ص، 233.

والحقيقة إن التاريخ المريني مليء بالحالات التي عبر فيها الجند عن رفضهم المشاركة أو الاستمرار في الحملات العسكرية، إن لم نقل إن أهم الحملات العسكرية في تاريخ هذه الدولة، سواء في اتجاه الشمال أو نحو الشرق، انتهت دون تحقيق نتيجتها، لأن الجند أرهقوا وغربوا عن نسائهم وذويهم ومواطنهم. وترجع أولى الإشارات في هذا المجال إلى مرحلة سابقة عن فترة موضوع الملعبة؛ إذ تكشف بعض النصوص أنه خلال الغزوات الأولى للجيش المريني إلى الأندلس أبدى الجند تذمرهم ومللهم من مقامهم بها بعيداً عن أهليهم، فرغبوا السلطان أن يجيزهم إلى العدوة، وفي هذا الصدد تذكر النصوص أنه خلال إحدى الحملات "قنط بنو مرين من المقام بالأندلس، وتشوقوا إلى أولادهم وديارهم. فلما علم أمير المسلمين [يعقوب بن عبد الحق] ذلك منهم، جاز إلى العدوة"[43].

وإذا كان الأمر على هذا الحال بالنسبة للأندلس، فإن توسع المرينيين نحو الشرق في اتجاه تلمسان أو تونس أثارت في كل مرة، وعلى امتداد التاريخ المريني كثيرا من الرفض والشجب، وخاصة من قبل الجنود، وقد بلغ هذا الوضع أشده في خضم الحصار الطويل الذي ضربه السلطان يوسف بن يعقوب على العاصمة العبدوادية ما بين سنوات 698 و706هـ[44]؛ حيث أفضى طول الحصار دون التمكن من اقتحام تلمسان، إلى تذمر من حمل بهم هذا السلطان ورفض الاستمرار، وهو ما يستشف من المشاورة التي أجراها السلطان أبو ثابت عامر مع أشياخ بني مرين والعرب ورؤساء الناس بشأنها، "هل يقيم على حصارها أم يرجع إلى المغرب؟ فكلهم أشار عليه بالرحيل والانصراف"[45]. معللين ذلك بـ"أن الناس قد قنطوا في هذه البلاد، ولهم بها عن أولادهم وعيالاتهم أربعة عشر سنة"[46]. فلما "رأى إجماع الناس على الرحيل"، قرر فك الحصار والعودة إلى فاس[47].

ولا شك أن هذا الموقف الرافض لاستمرار الحملة العسكرية المرينية على تلمسان، والتذمر الذي أصاب الجند من جراء طول مدة الحصار، وما أبدوه من

(43) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 321.

(44) ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص، 128. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 242. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط 2، 1983م، ج2، ص، 18.

(45) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 389.

(46) **المصدر نفسه**، ص ص، 389–390.

(47) **المصدر نفسه**، ص، 390.

إجماع على الرحيل من تلمسان، يدفعنا إلى عدم تبرئتهم من دم السلطان يوسف بن يعقوب الذي اغتيل قبل تلك المشورة بأيام على يد أحد عبيده الخصيان في خبائه بالمنصورة[48].

ويبدو أن فترة حكم السلطان أبي الحسن التي نظم عنها الكفيف ملعبته تمثل أبرز نموذج لرصد موقف الجند من الحركات العسكرية المستمرة بفعل ما ميز هذه الفترة من محاولات لبسط سلطة بني مرين على المجال الموحدي القديم[49]. فقد عرف عن هذا السلطان كثرة خرجاته وغزواته[50]، لدرجة أن بعض الشيوخ فضل حياة الخمول عن الجاه والقرب من السلطان بسبب رئيس، نطق به أبو الحسن نفسه بقوله: "هذا الشيخ توهم أن تقريبنا له، وأمرنا له بتعاهدنا كل وقت يوجب عليه السفر معنا... فقدم هذه المعذرة قبل أن نعرض عليه"[51]، ولدرجة اعتبرت فيها صحبة هذا السلطان "امتحانا"[52] لمن ابتلي بها، فكيف بالجنود الذين يفرض عليهم أمر الخروج للغزو فرضا؟

في هذه المرحلة، نظم الكفيف الزرهوني "ملعبته"، فجاءت خير تعبير عن موقف الجنود، وأيضا الموقف الشعبي، مما سماه "بالطامة الكبرى"[53] أو حملة أبي الحسن على إفريقية، فنطق باسم الجنود بكلمات بليغة لا تبعد قيد أنملة عن دور الزجل الشعبي في التعبير عما خالج الناس من مشاعر وأحاسيس صادقة[54]؛ فبعد أن أكد ضخامة أعداد الجنود والمتطوعة الذين خرج بهم أبو الحسن نحو إفريقية مشبها إياهم التيار الجارف أو السيل العارم[55]، يصف أحوالهم أثناء تغريبتهم بعبارات ملؤها القلق والحزن عن وضعهم ومصيرهم.

(48) انظر عن هذا الحدث، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 388.

(49) Kably. M, **Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-Âge,** Ed. Maisonneuve et Larose, Paris, 1986, pp. 128-157

(50) ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص، 338. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 388.

(51) ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 340.

(52) ابن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م، ق 1، ص، 86.

(53) **ملعبة**، ص، 81.

(54) عباس بن عبد الله الجراري، **الزجل في المغرب القصيدة**، الناشر مكتبة الطالب، مطبعة الأمنية، الرباط، د.ت، ص، 452.

(55) **المصدر نفسه**، ص ص، 70-72.

37- عَسْكَر فَاس المدينة الغَرَّا إِينْ صَارَتْ بِه عْزَايَمْ السلطان
39- عنْ جِيشْ الغَرْب جِيتْ نْسَالْكُم المَتْلُوف فِي إفريقيا السودا[56]

كما عدد ما نالوه من الجوع والخوف والمنايا، وتساءل بسخرية لاذعة عن قدرتهم على اقتحام القيروان:

46- إِلَّا نَاسْ عَارْيِينْ بْلَا سَتْرَا وُنَاسْ جَافْلَا لَا مْكَانْ وُلَا إِمْكَانْ
47- مَادْرُوا كِفْ إِسَوْرُوا الكَسْرَا أَمْ كِيفْ إِدَخْلُوا مْدِينة القيروان[57]

ويشير الكفيف الزرهوني إلى البدايات الأولى لتخاذل الجنود عن القيام بمهامهم بسبب النقص الحاصل في المؤونة وضعف الإنفاق:

108- فِي تْلَمْسَانْ جْمَعْ الجُيُوشْ وُاطْلَعْ هَذَا وُالزْرَعْ كِفْ بْدَا يَحْصَاد
109- أَمَارَا مَنْ شْلَفْ لُمْنْ جْمَعْ مَنْ فْقَدْ المَاء وُالغْلَا فِي الزَّاد
110- وَاشْ كَانْ دْعَانَا لْرَاسْ الأَقْرَعْ يغْسَلْ بَالمَا وُلَّا يْسَاقْ لَلْوَادْ
112- أَمَا غْنَى الْبَازْ مَنْ جِيفَةْ السَّدْرَا أُوكْفَاهْ لُحْمْ الحُجَلْ مْعَ السَّمَانْ[58]

تشير هذه الأبيات إلى وعي الكفيف بمشكل أساس كان من بين الأسباب الرئيسة التي أفضت إلى هزيمة الجيوش المرينية في هذه الحملة العسكرية، ويتعلق الأمر بمشكل الإنفاق الذي عانت منه الجيوش المرينية خلال هذه الحملة[59]، ومما يثبت ذلك إقدام أبي الحسن على فرض ضريبة "المعونة" لتغطية عجز بيت ماله عن تمويل حملاته، حين "ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد"[60]، مما أثار معارضة بعض الفقهاء مثل أبي زيد عبد الرحمن بن الإمام (ت.743هـ)[61]، وعبد العزيز بن محمد القوري (ت. 750 هـ)[62]، بل إن نصوصاً أخرى تثبت أن أبا الحسن قد اضطر أثناء تنقله في المغرب الأوسط، إلى أن يفرض على كل مدينة وظيفة المعونة

(56) **المصدر نفسه**، ص ص، 58-59.
(57) **المصدر نفسه**، ص، 60
(58) **المصدر نفسه**، ص، 72- 73.
(59) يبدو أن الجيش المريني قد عانى من هذا المشكل في معظم حملات أبي الحسن المريني، وشكل هذا العارض سببا أساسيا في الهزائم التي تعرض لها ومن ذلك هزيمة طريف التي وضعت حدا للتدخل الرسمي للمرينيين في الأندلس. ابن خلدون، **العبر**، ج 7، ص، 345-346.
(60) ابن مريم، **البستان**، ص، 124. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 246.
(61) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(62) ابن القاضي، **ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، د.ت، ج3، ص، 124.

وإمداد الجيش بالمال والسلاح[63]. ولا شك أن توفير رواتب الجند كان من أهم ما دفع بالسلطان إلى تبني هذه السياسة الجبائية أثناء حملته، يذكر الكفيف الزرهوني أن الجنود اشتكوا من ضعف وقلة رواتبهم، بل ويجعل من ذلك أهم سبب قادهم إلى التذمر والتمرد[64].

أما العنصر الآخر الذي أجج تذمر الجند، فبعدهم عن أبنائهم وزوجاتهم، لذلك نجد الكفيف يذكر في كل مرة بأوضاع هؤلاء الأطفال الذين افتقدوا آباءهم وتلك النساء اللواتي افتقدن أزواجهن نتيجة هذه الحملة، فمرة يتحدث بلسان الجنود الذين تذمروا من تلك الحملات، وأبعدوا عن أهليهم وأولادهم، فيقول:

166- أُولَادْنَا تْيَتْمُوا بْنات وُبْنِينْ وُنْسَانَا تْرَمْلُوا وُنَحْنُ أَحْيَا[65]

ومرة أخرى يذكر بأوضاع تلك الشرائح المتضررة من النسوة والأطفال، ويجمع بين مصيرها وبين أطماع السلطان أبي الحسن في إفريقية التي أهلكت النفوس فيقول:

96- وُلَبْحَلْ هَذْا الْطَامَعْ الغَرْرَا يَتَّمْ الَأوْلَادْ وُرَمَّلْ النَّسْوَانْ[66]

في ظل هذه الوضعية المتميزة بتذمر الجند من ضعف الإنفاق وقلة الرواتب ومن طول المدد التي قضوها بعيدا عن أهليهم، والتي وصفها الزرهوني بكلمات بليغة، كانت النتيجة خيانة وخذلان للسلطان والدفع به إلى الهزيمة من قبل من

(63) يورد ابن مرزوق نصاً كاشفا عن هذه الحقيقة، نورده هنا على طوله "ومن عجيب ما يذكر وينشر قضيته مع شيخنا الفقيه أبي زيد بن الإمام على الجزائر، ولم أحضرها يومئذ، أنهم اشتدوا في عمارة الأسطول المبارك الذي كان فيه الفتح العظيم واقعة الملند المعروفة المشهورة، وكان بظاهر الجزائر، فأخبروه أن أهل الجزائر تثاقلوا في بعض ما وظف عليهم من الرماة، فاشتد عليهم، وقيل بين يديه إنهم كانوا بالأمس يرمون في وجه مولانا، وهل هم إلا أعداء، فقال، يؤخذون جبراً وأغلظ في القول. فدخل الفقيه ابن الإمام في أثناء ذلك، فالتفت إليه، وقال، كيف ترى هؤلاء يطلبون الرماة للجهاد ويتوقفون، أما يستحقون العقوبة شرعاً؟ فقال له الفقيه... لا يجب عليهم ما طلب منهم ولا عقوبة في توقفهم .... وهل هذه بيوت الأموال التي تجمعونها والجبايات التي تجبونها إلا مرصدة لما يحتاج إليه المسلمون حتى إذا فنيت بيوت الأموال، وفعلت ما فعل من أنت تقتدي به حين كنس بيت المال وصلى فيه، ثم يكون لهم نظر غير هذا، وحينئذ يوظف عليهم بحسب القدرة وما تدعوا إليه الضرورة". **المسند الصحيح الحسن**، ص ص، 161-162.

(64) الكفيف الزرهوني، **ملعبة**، ص، 82-83.

(65) **المصدر نفسه**، ص، 82.

(66) **المصدر نفسه**، ص، 70.

حمل بهم إلى إفريقية سواء من بني مرين[67] أو من القبائل العربية[68] وغيرها من قبائل بني عبد الواد وبني توجين[69].

178- انْظُـرْ هَـذْا النَّفَانَـفْ الَأرْبَـعْ كِـفْ عْمَـتْ جِيشْـنَا وَلَّى سَـافِي
179- مَـا طْلَـعْ فِيهَـا قَلَـبْ خَالَـصْ الْمُنْبَـعْ غِـيرْ وَاحَدْ مَـنْ مَيَّـا اسَّـتْقَى الصَّافِي
180- وُكْـذَاكْ جَابْ بْـذَا الْجْيُـوشْ وُاطْلَعْ بِلْقَى بِهَا بُودْبَـا الطَّافِي[الجراد المنتشر][70]

يضعنا الكفيف الزرهوني إذن في نظمه هذا أمام تحليل دقيق لأسباب فشل حملة أبي الحسن على إفريقية ويجعلنا أمام دواعي واضحة كانت وراء رفضه لهذه الحركة، فهو الذي عايش هذه الأحداث وتتبعها بدقة لا متناهية[71]، لا يضاهيه فيها سرد ابن خلدون أو ابن مرزوق لتفاصيل هذه النكبة، لذلك لا نجد حرجا في التأكيد أن كثيرا من المعطيات التي أوردها ابن خلدون عن هذا الحدث استقاها من ملعبة الكفيف[72]، بما في ذلك التحليل الذي خصه لأسباب فشل الحملة والتي انسجم فيها مع ما أورده الزرهوني في هذا السياق، إذ يفسر ابن خلدون[73]، أسباب تبرم بني مرين عن السلطان أبي الحسن وتخليهم عنه، والدفع به إلى الهزيمة في أكثر من موقف، ومنها حملته إلى إفريقية، بقوله: "كان لبني مرين نفرة من السلطان وحذر من غائلته لجنايتهم بالتخاذل في المواقف، والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار، ويتجشم بهم المهالك، فكانوا لذلك مجتمعين على منابذته، ومخلصين مناصحة ابنه" أبي عنان، ربما لأنه مثل في هذه المرحلة المنقذ والمخلص لهم من حملات أبيه، التي أرهقتهم، وخلقت لكثير منهم مآزق اجتماعية مع عائلاتهم وذويهم.

عموما فقد كانت نتيجة الحملة انهزاما سحيقا للجيوش المرينية أمام القبائل العربية بالقرب من القيروان، وتشتت ما تبقى من هذا الجيش بعد ما ناله من القتل

(67) **المصدر نفسه**، ص، 82–83.
(68) **المصدر نفسه**، ص، 83.
(69) **المصدر نفسه**، ص، 81.
(70) **المصدر نفسه**، ص، 84 - 85.
(71) المؤكد ان الكفيف الزرهوني كان قريبا جدا من أحداث هذه الحملة العسكرية، وهو ما تثبته بعض أبيات الملعبة. ص، 62. بل إن بعضها يثبت أنه فرغ من نظمها قبيل انجلاء آخر مرحلة في محنة السلطان لأن آخر حادثة سجلها هي غرق أسطوله في سواحل الجزائر. الملعبة، مقدمة المحقق، ص، 11.
(72) فابن خلدون يذكر أنه كان يحفظ ملعبة الكفيف الزرهوني لإعجابه بمتنها وإبداع صاحبها في نظمها، المقدمة، ص، 525.
(73) **العبر**، ج7، ص، 378.

والأسر، وقد عبر الزرهوني عن هذه اللحظة القاتمة بأبيات يتفجع فيها، بعد أن عبر عن عدم قدرته على الاستمرار في سرد تفاصيل هذه النكبة بقوله:

256- آشْ مَقْـدَارْ مَـا نْطَـوَّلْ الهَـدْرَا دْفَـعْ السَّـلْطَانْ وُضْفَـتْ الوِيـدَانْ
257- فَـدْوَتْ بَنْدَاهْ وُمَدَّةْ الكَسْرَا [الهزيمة] حْتَّـى بَلْغَـتْ كْتَائَـبْ الكَتْبَـانْ[74]

ثم أردف يقول:

266- هَـذَا وُكْـثَـرْ بْـنِـي مْـرِيـنْ فَـقْـرَا فَـرَسْ مَهْزُولْ وُصَاحَبْ جِيعَانْ
267- قُلْ لِي أَلصَّحْ مَنْ بِنُوحْ وُمَنْ بِقْرَا فُوقْ ذَا المَيَّتْ وُمَنْ بِسَوَّقْ الأَكْفَانْ[75]

ويضيف الكفيف واصفا حال الجند المغربي بعد الهزيمة، والذين هاموا في صحاري إفريقية والمغرب الأوسط يتلقفهم قطاع الطرق من العرب وغيرهم، حتى تساقطوا إلى تلمسان عراة زرافات ووحدانا[76]:

299- وُتْـرَى المَغْرْبِي يِصَلْ عْلَى الضْفَا لَـلْـعَـرْبِـيَّـة وُلَا تْـقُـلْ تَـقْـنَـطْ
300- كَيَبْقَى عَنْدَ شْهَرْ عْـلَى الفَحَا فَـإِذَا رَامْ الرْحِيلْ تْقُلْ كَشَّطْ
301- مَـا تَـسْـمَـعْ غِـيرْ صُـوتْهَـا بُـكْـرَا يَا عُمْرَانْ قُمْ جَـرَّدْ الضِّيفَانْ[77]

أما الحادثة الأخيرة التي يوثقها الكفيف الزرهوني بكثير من الأسى والإشفاق على حال السلطان والمصير الذي آل إليه، فهي غرق أسطوله بالقرب من سواحل الجزائر، والحال الذي أصبح عليه المغرب نتيجة هذه النكبات، يقول الكفيف:

473- أَمَـارَا قَلْبَـكْ أَمْرِينِي مَـنْ نَـارْ وُمَـا جْـرَعْ مَـنْ سْـمُومْ وُمَـنْ عَلْقَمْ
474- إِذْا خَابُوا يُومْ رْزَيَّةْ المْسَمَارْ [السفينة] رَشْـقُوا سْـهَـمْ أُو هْجَـمْ عْلِيـهْ أَرْقَـمْ
475- قُـلْ لِي ذَلْ العَزِيـزْ وُمَاتُـوا الأَحْـرَارْ وُالْتَهَمْهُـم بْحَـرْ وُأَيْ بْحَـرْ عَـامْ[78]

(74) الكفيف الزرهوني، **ملعبة**، ص ، 98.
(75) الكفيف الزرهوني، **ملعبة**، ص ص، 99-100. يبدو أن الكفيف الزرهوني ينسجم هنا مع ما وقع في هذا المعنى لبعض الشعراء أثناء نكبة الجيوش المرينية بالقيروان، ويتعلق الأمر بأبي القاسم الروحي من أهل تونس حين قال :

استغفـــر الله كـــل حيـــن قد ذهـــب العيـش والهناء
أصبح في تـونس وأمســـي والصبـــح لله والمســـاء
الخـــوف والجـــوع والمنايا يحدثهـــا الهـرج والوبـــاء
النـاس فـي مريـة وحـــرب ومـا عسـى ينفعهـا المـراء

ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 448.
(76) الكفيف الزرهوني، **ملعبة**، ص، 21.
(77) الكفيف الزرهوني، **ملعبة**، ص ص، 105.
(78) **المصدر نفسه**، ص، 137

بهذه اللغة المليئة بالتحسر والتفجع على حال الجيش المغربي المنكوب عبّر الكفيف الزرهوني عن دواعي رفضه لهذه السياسة التوسعية للمرينيين نحو المغرب الأوسط وإفريقية، منسجما في ذلك مع مواقف من رفضوا السير أو الاستمرار في هذه الحملة. وقد حرص الكفيف أن يؤكد ما أمكن أن موقفه الرافض هذا لم يكن وليد ما بعد النكبة، بل مرتبط بتصور "استراتيجي" أصيل تفاعل مع ظروف السلطة المرينية والواقع السياسي للمغرب الإسلامي عامة خلال هذه المرحلة، فأدرك غياب إمكانية استعادة الإرث الموحدي البائد، وتنبأ بفشل الحملة واندحارها. وقد اعتمد، لتأكيد ذلك، أحيانا على مواقف بعض رجال السياسة وأصحاب المشورة في مغرب هذا العصر أمثال الوزير عيسى بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق الذي أشار على السلطان أبي الحسن بالتوقف عن القيام بهذه الحملة[79]، وأحيانا أخرى على لغة غيبية تتنبأ بالهزيمة قبل وقوعها استنادا إلى توقعات المنجمين وخوارقهم[80]. ورغم إصرار الزرهوني على ربط موقفه بما قبل النكبة، فأننا نميل إلى إضفاء طابع الانتهازية على خطابه لأنه جاء متأخرا عن الحدث بل قيل في أعقابه وبعد معرفة أكيدة بنتيجته، معتقدين أن الكفيف ما كان لينظم ملعبته بهذه اللغة لو انتهت الحملة المرينية بغير ما انتهت إليه. أما دليلنا في هذا الاستنتاج فازدواجية في الخطاب طبعت لغة الملعبة على امتداد أبياتها.

ثانيا- ملعبة الكفيف الزرهوني وازدواجية الخطاب

نعتقد أننا نخطئ الصواب إن جعلنا الكفيف الزرهوني في موقف بعيد عن السلطة مناهض لتوجهاتها السياسية، فخطاب الملعبة، في كل الأحوال، خطاب لا يبتعد كثيرا عن توجهات السلطة المرينية، غير أنه يبتعد قليلا ليمارس نقدا لَبِقا لبعض اختياراتها، ثم يعود ليصبح إلى جانبها ويساندها على هناتها. فالكفيف

(79) المصدر نفسه، ص، 64-65.

(80) وإليك هذا المقاطع التي يؤكد فيها الكفيف انسجام موقفه مع موقف بعض المنجمين الذين تنبئوا بنكبة السلطان قبل وقوعها:

وأصحاب الأجفار في كتايبتا وفي ترحيل كاتب وكيوان
أن مرين إذا اتكت برايباتها لجدران تونس يسقط شانها
كان قال شخص: ريتها في مقام ما نذكر إسمه ولا نفشيه
رأيت بدر السما نزل برج حمام حتى دخل طاق فيه وسد عليه
فبق مدة يقال في ذا الثغرا تسمع لو حمحم كصهيل حصان
أن السلطان في مدتو يجرا ما لا يسع سطور ولا ديوان

المصدر نفسه، ص، 64-103..

يعلن أنه ضد حركة السلطان أبي الحسن إلى إفريقية، وفي الآن ذاته معها وضد كل المتآمرين عليها مادامت قد أصبحت واقعا بالفعل. إنها ازدواجية في الخطاب لا يبررها إلا إدراك الكفيف لمنطق كثيرا ما تعترف به السياسة، منطق أن تكون ضد السلطة في أطماعها ومعها ضد الغريب في نكباتها.

وإذا كنا قد أثبتنا في الصفحات السابقة بعضا مما يثبت رفض الكفيف الزرهوني لسياسة المرينيين التوسعية نحو الشرق، فإن القرائن لا تعوزنا في تأكيد دعم صاحب الملعبة لأبي الحسن المريني في نكبته وولائه المطلق له، فهاهو في الأبيات الأخيرة من نظمه التي يشير فيها، على ما يبدو، إلى حالة القلق التي سادت المغرب أثناء نكبة السلطان في القيروان وغرق أسطوله بالقرب من الجزائر وانقلاب ابنه أبي عنان عليه[81]، يدعو له بالنصر على من عاداه[82]، ويهدي له ملعبته[83].

وقد انبرى الكفيف الزرهوني في نظمه على تقديم كل المبررات لحركة السلطان نحو إفريقية، وفي مقدمتها إخماد الفتنة في تونس بعد موت السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر بن أبي زكرياء سنة 747هـ، واستبداد ابنه عمر بالحكم وقتله لعدد كبير من أفراد أسرته، وما نتج عن ذلك من اضطراب[84]، ودعوة الأشياخ السلطان لإنقاذ الوضع، إلى جانب الرغبة في تمهيد طريق الحج[85]، ونشر الأمن في الطرقات والمسالك[86]، وتغيير المنكر والقضاء على مظاهر الفساد والانحلال من مثيل الخمر وغيره[87]، ورفع المظالم والمكوس والضرائب المجحفة[88]، ومنع الاتجار في الممنوعات مع العدو المسيحي[89] إلى غير ذلك من الأسباب التي قدمها الكفيف كمبررات دفعت بالسلطان على اتخاذ قرار الحملة.

من جانب آخر تتبع الكفيف تفاصيل النكبة ومشاهد الهزيمة، فوصف بكثير من الإغراب والإبداع الواقعة مشيدا بشجاعة السلطان وابنيه وبعض قواد جيشه،

(81) المصدر نفسه، ص، 138.
(82) المصدر نفسه، ص، 140.
(83) المصدر نفسه، ص، 140.
(84) المصدر نفسه، ص ص، 65-68.
(85) المصدر نفسه، ص، 70.
(86) المصدر نفسه، ص ص، 73-76
(87) المصدر نفسه، ص، 74.
(88) المصدر نفسه، ص، 83.
(89) المصدر نفسه، ص، 75.

وفرقة الروم التي غطت انسحابه بعد الهزيمة وتخاذل قومه وجيشه عن نصرته[90]. معترفا في الآن ذاته بصلابة الأعراب واستماتتهم كما لو أنهم خلقوا من حديد أو اشتقوا من حجر. وبكثير من التأسف على حال السلطان وصف لحظة الهزيمة بهذه الأبيات:[91]

261- ثُـمَّ خَـانْ كُـلْ مَـنْ دْفَـنْ شَعْرَا فِي قَلْبُو مَـنْ عْـدَاوْة السُّلْطَان
262- غَـدْرَتْ تونس وُاظْـهَـرَتْ مَكْرَا حْتَّى الْحَاجْ الصَّفِي السِّيدِي خَانْ
263- غَـدْرَتْ تونس وُنَافْقَتْ فِي الحِينْ وُارْتَـدَّت بَـعَـدْهَـا السّوِيدْيَا
264- وُجْيُوشْ الْغَرْب عَنْ شْمَالْ وُيْمِينْ لَـفْ الـرَّايَـة وُزَجْ بُـورْيَـا
265- حْتَّى مَنْ كَانْ حْقِيقِي تْجَدُه يْعِينْ بَنْ بُوزَكْرِي وُقْلَبْ الَعْصَا حْيَّا[91]
266- هَـذَا وُكْـثَـرْ بْـنِـي مْـرِيـنْ فَـقْـرَا فَـرَسْ مَهْزُولْ وُصَاحَبْ جِيعَانْ
267- قُلْ لِي اَلصَّحْ مَنْ يِنُوَّحْ وُمَنْ يَقْرا فُوقْ ذَا الْمَيَّتْ وُمَنْ يِسَوَّقْ الَكْفَانْ
268- قْـوَى الـشَّرْ فِي مَحَـلَّـةْ الـرُّومِـي لَيْثْ الغَابَة يِصْطَحَبْ مْعَ الثّعْبَانْ
269- وُرْجَـعْ مَـنْ كَـانْ مَعْوَالُو يَرْمِي لْوَجْه السَّلطان وِيقْصَدْ العِينَانْ
270- حْتَّى مَا حْمَى الأمِير سِوَى الرُّومِي وُمَا حَفَّتْ مَنْ بْنُي مْرِينْ أَعْيَانْ[92]

علاوة على ذلك، ورغم التبرير الذي قدمه الكفيف الزرهوني للجند المريني الذي تمرد عن أوامر السلطان وجره إلى الهزيمة، لم يتوان في التحسر على ما نزل به، وتوبيخ كل من خانه وكيلهم بأقدح الأوصاف، وفي مقدمة هؤلاء بني توجين وبني عبد الواد الذين شبههم بالأفاعي والعقارب التي نثرت سمها في جيش السلطان فأفسدته[93]، ثم بني حفص الذين استنجدوا بالسلطان ثم خذلوه واصفا إياهم بالجرح الذي أصاب السلطة المرينية[94]، إلى جانب أصل الداء ومنطلق الهزيمة قبائل بني مرين والقبائل العربية التي حمل بها السلطان وتخاذلت عن نصرته[95]. أما العلة الكبرى التي كالها الكفيف بأقبح الأوصاف، فقد كانت القبائل العربية التي ثارت على السلطان وأعلنت الحرب عليه وكانت السبب الأول والأخير في فشل

(90) المصدر نفسه، ص ص، 90-96.
(91) المصدر نفسه، ص، 99.
(92) المصدر نفسه، ص، 100.
(93) المصدر نفسه، ص، 81.
(94) المصدر نفسه، ص، 81-82
(95) المصدر نفسه، ص، 83.

حملته عندما انهزم أمامها بالقرب من القيروان. لذلك وصفهم بمسامر الصحراء واعتبرهم قوما أجهل من جمالهم الصفراء[96].

خلاصة القول إن الكفيف الزرهوني لم يتردد في التعبير عن موقف واضح رافض لسياسة بني مرين التوسعية نحو الشرق، وكأنه يعلن عن تغير واضح في الخريطة الجيوسياسية للمغرب الكبير، تغير ينعي التجربة الوحدوية التي حققها الموحدون، ويقر بضرورة التعايش السلمي بين الأنظمة السياسية التي اقتسمت الإرث الموحدي من أجل مواجهة التوثب المسيحي في جهة الشمال. ورغم كل هذا فالكفيف لم يستطع إخفاء ولائه الشديد وتقديره الخاص لشخص السلطان أبي الحسن المريني، لذلك اخترنا أن نختم هذه المقالة بهذه الأبيات التي يعبر فيها الزجال عن لوعته لما نزل بالسلطان:

477- لَوْ كَانَتْ فَاسْ ثَكْلَى وُرِيمْ حُرَّا طُولْ عَمْرَا كَانَتْ تَلْبَسْ أَبْطَانْ
478- كْذَا أَهَلْ الدِّينْ في عصبتم معنا كالقاضي والمدرس الاكبر
479- فِي كُلْ نْهَارْ يِدْعُو لُولَنَا بْذَا الكُرسي وُفُوقْ عْلَى المنبر
480- وُالمَغْرِبْ كَانْ فِي أَكْبَرْ مَحْنَا مَنْ ضِيمْ الذَّلْ وُزْمَانْ الغَدْر
483- كْتَبْ الغَرْبْ القْدِيمْ مَنْ أَرْض السُّوس لْأَرْض السَّاحَلْ لُمْنْتَهَى دَرْعَا
484- لَلسُّلْطان الحجب المَحْبُوس فْي المَشْرِقْ مَنْ حْرِيقْة الْفَجْعَا
485- مَا أَدَّاهَا لَا حْمَامْ وُلَا طَاوُوسْ إِلاَّ البُوم أُو الغْرَاب أَبُو الفَجْعَا
486- فِيهَا أَمُولَايْ هْجَرْتْنَا هَجْرَا لَوْ رِيتْنَا بَعْدَكْ يَا حْيَاةْ لَبْدَانْ
487- نَكْسُوا بَالذَّل حُلَّة حَمْرَا بَعْدمَا كُنَّا فِي دُوحَة الرِّيحَانْ

(96) المصدر نفسه، ص، 83.

Résumé

La voix de la *'amma*, ou l'opinion publique du Maroc classique, en l'occurrence ici sous la dynastie mérinide, se faisait entendre par le *zajal*, ces poèmes en langue savante mais libre de tout *i'rab* ou déclinaison, comme en témoigne cette *mal'aba* d'az-Zarhuni qui déplore les malheurs engendrés par la harka du sultan Abu al-Hasan en Tunisie, considérée comme une erreur stratégique puisqu'elle se solda par la défaite des armées marocaines devant Kairouan, le naufrage de la flotte aux larges des côtes algériennes et provoqua le coup d'état fomenté par le propre fils d'Abu al-Hasan, Abu 'Inan, qui écarta son père du trône. Mais tout en pleurant les malheurs publics, le poète ne laisse pas de plaindre ceux d'Abu al-Hasan qui a été un grand sultan que la '*amma* a respecté et aimé.